لبنان: من الحجر إلى الزهرة

أحمد الخميسي

يقول الكاتب الأرجنتيني خورخي بورخيس: «إنّ الأعمالَ الجديرةَ بالذِّكْر لا تحتاج إلى عباراتٍ جديرةٍ بالذِّكْر.»

ربما لا تكون المقاومةُ اللبنانية بحاجة إلى بلاغةٍ للدفاع عنها، لكنّها بحاجة إلى امتدادها الروحي ـ في القصائد، والصور السينمائية، والأغاني ـ وبحاجة إلى أفق معنوي تَضْرب فيه بجناحيْها على مرأًى من شعبها. إنّ الطير الذي دافع عن عشّه بحاجة الآن إلى الهديل.

لقد وَضعت المقاومةُ اللبنانيةُ المنطقةَ بأسرها على أعتاب مرحلةٍ جديدةٍ من التحرُّر الوطني، بمضمونٍ اجتماعي جديد، وأدواتٍ وقدراتٍ تنظيمية وعسكرية جديدة، تقود خلالَها الفئاتُ الشعبيةُ الصراعَ ضدّ المشروع الأميركي. هذه هي الحقيقة الرئيسية التي أَسفرتْ عنها الحربُ. وهذا هو البابُ الضخمُ الذي أحاطته الأساطيرُ والتعاويذُ طويلاً، ففتحه الشعبُ اللبناني، وغَرَسَ حربتَه في جنب الوحش، وواصل التقدُّم. لقد أَدرك الناسُ ذلك، أينما كانوا، وهم يتتبّعون أنباءَ القتال ـ بتوجُّسٍ في البداية، ثم باطمئنان، وأخيرًا بفرح غامر، لأنّ النفس تحرررتْ من وطأةِ مهانةٍ تراكمتْ نصفَ قرنٍ كنّا نَشْهد خلاله يوميّاً قتلَ أطفالنا ونسائنا، ونَعْجز عن الردِّ، أيِّ ردّ.

وكنتُ مع الآخرين أتتبّع الأنباءَ الظاهرةَ من الحرب. عددَ صواريخ المقاومة، المواقعَ التي تصيبها، حجمَ عمليات العدو، أعدادَ القتلى والشهداء .. لكنّني كنتُ أريد أن أرى الحربَ من **الداخل**، فأخذتُ أتتبّع التقاريرَ الإخباريةَ الجانبية التي يتحدث فيها اللبنانيون البسطاءُ من الشوارع، وقربَ بيوتهم المحطّمة، وأقرأ الانفعالَ على وجوههم وإشاراتِ أياديهم. . ودموعِهم أحيانًا. لقد كانت الانفعالاتُ وحدّةُ المشاعر الغاضبة لا تقلّ أهميةً، بالنسبة إليّ، عن عدد الصواريخ ونوع الضربات العسكرية فتلك كانت نشرةَ أنباءٍ أخرى عن احتشاد الروح اللبنانية في هذا الاتجاه أو ذاك، بهذا القَدْر أو غيره. يقول الكاتبُ الروسي العظيم أندريه بلاتونوف: «الشعب من غيري ناقص» ـ أيْ أنّ لكلِّ فردٍ أهميتَه المطلقةَ التي يختلّ من دونها بناءٌ كامل. هكذا كان كلُّ انفعال فرديّ على وجه امرأة أو عجوز، وكلُّ اختلاجةِ مَلْمح، وكلُّ صيحةِ دعمٍ للمقاومة، أمرًا لا يستقيم من دونه الانتصارُ، وإلاّ أصبح مجردَ نصرٍ عسكري. لقد كان اللبنانيون الذين يقفون وقتلاهم على أذرعهم هاتفين «فدى المقاومة،» يصيبونني بالذهول وهم يُريقون سحرَ البطولة ووهجَها على تراب الوطن فيَلْمع بلون الذهب. وهكذا كنتُ أستمدّ ثقتي بالنصر من الإدارة العسكرية اللبنانية للحرب؛ ولكنّني كنتُ أستمدّها بالقدْر نفسه من وجوهٍ وعيونٍ لبنانيةٍ عابرة، لن تَدْخل كتبَ التاريخ، ولن يَذْكر أحدٌ أسماءها.

أَذْكر هنا سيدةً وقفتْ ضخمةً كشجرة أمام عدسة التلفزيون. سألها المراسلُ عن شعورها وهي ترى بيتَها مهدَّمًا أمامها على مرمى البصر. سألتِ السيدةُ المراسلَ: «ماذا ترى أنتَ أمامك؟» أجابها بهزّة رأس اعتيادية دون أن يَفْهم ما تَقْصده «أحجارًا.» فهتفتْ به غاضبةً، وقالت: «هذه ليست أحجارًا. إنّها زهور ورود ستصبح غدًا حديقةً كبيرةً. الحجر يرمِّم، لكنْ إذا تحطَّمتْ كرامتُنا أصبحنا لا شيء.»

كنتُ أتابع مظاهرَ الشعور بالكرامة باعتبارها الذخيرةَ التي يقاتل بها الناسُ، جنبًا إلى جنب مع صواريخ المقاومة ومَدافعها. وبدون ذلك الشعور لا يمكن لأحدٍ، أو جماعةٍ، أو شعبٍ، أن يحقِّق انتصارًا ذاتيّاً، أو موضوعيّاً، أو تاريخيّاً. أما حين يصبح ذلك الشعورُ ظاهرةً نفسيةً عامة، فلا بدّ أن يزحزح التاريخَ إلى الأمام.

الكثيرون يَنْظرون إلى المعارك والحروب على أساس أنّها صراعُ موازين القوى المادية وحدها، ومن المنظور ذاته يقدِّرون الربحَ والخسارة. والذين يكرِّسون هذه الرؤيةَ لقراءةِ ما جرى يريدون أن يقولوا لنا إنّ لبنان خسر، لأنّ عددَ البيوت التي دُمِّرتْ بلغَ كذا بيتًا، وعددَ الجسور التي حُطِّمت بلغ كذا جسرًا، وعددَ النازحين من الجنوب وصل إلى مليون نازح. وباختصار، فإنّهم لا يرونْ في الحجر سوى حجر. فكيف، إذن، رأى اللبنانيون الحجرَ وردةً ـ وهم الذين نَزَحوا، وفَقَدوا الأحبّةَ، والمسكنَ، والعملَ، ورؤوسَ الأموال؟

يثير كلُّ حدثٍ تاريخي دوّاماتٍ من ردود الأفعال التي تتباين باختلاف الطبقات والمصالح المتعددة ومفكِّريها ومع الخطوة

لبنان: من الحجر إلى الزهرة

التاريخية التي قامت بها المقاومةُ اللبنانية، أدركت الأنظمةُ العربيةُ التابعة أنّ حركةَ مقاومةٍ قادرةً على تحرير بلادها ستكون قادرةً أيضًا على الإطاحة بتلك النظم وبمجمل العلاقات الاجتماعية القديمة وما تقوم عليه من استغلال وفسادٍ وهوان. ولهذا حاول المحورُ السعودي ـ المصري ـ الأردني منذ البداية تطويقَ المقاومة، واتهامَها بأنّها مغامرةٌ غيرُ محسوبة. فلما رَسَّخَتْ أقدامَها وَحقَّقتْ نصرَها، أخذ أقطابُ ذلك المحور يشكّكون في قيمة ذلك الانتصار، ويسعَوْن إلى سرقة مغزاه من الوعي العامّ، لأنّ أكثر ما يفوق الانتصارَ خطورةً هو أن يعي الناسُ أنّ **بوسعهم** الانتصارَ. هكذا تحدّث أولئك الأقطابُ عن أنّ حزبَ الله انتهك السيادةَ اللبنانيةَ بتجاوزه خطَّ الهدنة دون إذن. ولكنّ ما هي السيادة اللبنانية التي انتهكتْها المقاومةُ؟ ألم ينتهكها الاحتلالُ الإسرائيلي من قبل؟ من أين يبدأ الانتهاك إذن؟ من الاحتلال أمْ من التصدي له؟

ثم راح أقطابُ المحور المذكور بعد توقُّفِ العملياتِ الحربية يزعمون أنّ المقاومة لم تجلبْ سوى الدمار على لبنان لكنْ ألم يكن لبنان معرَّضًا دائمًا للدمار في ظلّ الاحتلال الإسرائيلي لشبعا، وفلسطين، والجولان، وتجريدِ سيناء من السيادة المصرية عليها؟ ما الذي كان يحمي لبنانَ والعربَ من تفجُّر الدمار سوى القبول بالمهانة؟ لقد التزم العربُ الصمتَ ثلاثين عامًا مع بدء التسوية السياسية، فلم يَحْصدوا سوى المزيد من التهديد و العدوان ألم يهدِّد آرييل شارون خلال الانتفاضة الفلسطينية بقصف السدّ العالي؟ ألا يُقتل جنودُنا المصريون في «رفح» بنيرانٍ صديقةٍ، فلا يجرؤ أحدٌ على فتح فمه بحرف؟ ألا يُقصف الفلسطينيون بوحشيةٍ كلَّ يوم؟ ألا تحلِّق الطائراتُ الإسرائيلية في المجال الجوي السوري؟ ألم يكن كلُّ هذا سابقًا على المقاومة؟

بعد كل وقف لإطلاق النار يبدأ إطلاقُ الأفكار للتهوين من انتصار طرف، أو لتصوير هزيمةِ الطرف الآخر باعتبارها فوزًا أو تعادلاً. فعندما انحسرتْ ثورةُ البطل أحمد عُرابي، بدأ إطلاقُ الأفكار المكثّف، وتمّ تصويرُ الثورة العظيمة التي أنارت الشرقَ كلَّه باعتبارها مجردَ «هوجةٍ» جَلَبتْ على مصر الاحتلالَ. ولزمنٍ طويلٍ خَسِرَ الوعيُ ما كسبته الثورة. هكذا أيضًا فعلوا وهم يفتّشون في أوراق ثورة يوليو ١٩٥٢، فقالوا إنّ «مغامرات» عبد الناصر أصْلُ الكوارث. وهكذا تحدّثوا عند بزوغ المقاومة الفلسطينية عام ١٩٦٥، ومع الأيام الأولى لظهور المقاومة العراقية للاحتلال الأميركي. وهكذا يتكلمون الآن مع انتصار لبنان، وهكذا تَذْرف أسرابُ الغربانِ الدموعَ على خسائر لبنان ـ ليس تعاطفًا، ولكنْ لتشويه مغزى الكفاح الشعبي الذي شارك فيه الأطفالُ والنساءُ والمقاتلون والكتّابُ والمثقفون اللبنانيون. لكنّ هذا النعيق لم يَدْفع شعبًا إلى التخلّي عن القتال دفاعًا عن كرامته.

عام ١٩٦٤ احتلّت أميركا ڤيتنام، ونشرتْ فيها نصفَ مليون جندي طوال عشر سنوات، لكنّها بعد أعوام جرجرتْ خلفَها حوالى ستين ألف عسكري أميركي قتيل. وبعدها تَوجَّه أحدُ الصحافيين بسؤال إلى هوشي مِنْه: «ألم يكن السلامُ أوفرَ لبلادكم؟» فأجابه القائدُ الڤيتنامي: «بالطبع. لكنّ الحرية أغلى » إنّ هذا هو ما قالتْه أيضًا النساءُ اللبنانيات الواقفاتُ قرب بيوتهنّ المهدّمة. و«الحرية الأغلى» ليست عبارةً رومانسية. فقد أدرك الشعبُ اللبناني أنّ الحرية التي سعت إليها المقاومةُ اللبنانيةُ ليست مجرَّدَ شعورٍ عزيزٍ بالزهو والكرامة، بل هي أيضًا حسابٌ ماديٌّ (وبالأرقام) للقدرة على حياة أفضل. ففي ظلّ الحرية وحدها يمكن أن تتحرَّر الشعوبُ الفقيرة من شروط صندوق النقد الدولي الذي يَفْرض عليها الخصخصةَ والمجاعةَ، ومن شروط الاستعمار الذي يَحْرمها الانتفاعَ بالطاقة النووية ويُجْبرها على فتح بلادها سوقًا لسلع الغرب. وفي ظلّ التحرر وحده تتّسع فرصُ التعليم، والسكن، والتصنيع، واستصلاح الأراضي، والتطور الاقتصادي والاجتماعي والثقافي. الحرية أغلى، لأنّها تفسح مجالاً أوسعَ لحياة كريمة. وليس ثمة حريةٌ، أو حياةٌ كريمة، ملقاة على قارعة الطريق بالمجّان. أما الذين يتحدّثون عن «معايير النصر والهزيمة،» ويشكّكون في الإنجاز التاريخي للمقاومة اللبنانية، فإنّهم يدّعون أنّ المقاومة لم تحقّق انتصارًا حاسمًا. نعم. ولكنْ هل حقّقتْ «كومونةُ باريس» انتصارًا حاسمًا؟ ألم تكن تجربةً تمهيديةً لعرضٍ تاريخيٍّ آخر، أقوى، وأعظم؟ وهل حققتْ ثورةُ ١٩٠٥ في روسيا نصرًا حاسمًا؟ ألم تكن مقدِّمةً لثورة ١٩١٧؟ وهل كانت ثورة أحمد عرابي سوى جسرٍ عَبَرَ

عابرييلا بوليسوڤا

بقايا التزام وإيمان في الضاحية الجنوبية

عليه مصطفى كامل وعَبَرَتْ فوقه ثورةُ ١٩١٩؟ إنّ مراحل الانتصارات الانتقالية لا تَحْصد نصرًا واضحًا، حاسمًا لكنّها تُراكِمُ النصر، وتضع المقدّمات الموضوعيةَ لظهوره بشكل حاسم والآن، فإنّ حزب الله سوف يصبح مَقْصدًا لآلاف يتدفّقون نحوه وحين تقرّر إسرائيلُ أن تَضْرب ضربةً ثانية، فسيكون وضعُها أسوأ بكثير؛ فقد ألهمت المقاومةُ اللبنانيةُ الناسَ في كلّ المنطقة أن يديروا ظهورَهم للاستسلام نهائيّاً، وفَتحتْ لهم الطريقَ، ووضعت الوسائلَ بين أياديهم ليَمْضوا بها إلى الأمام

يريدون للشعب اللبناني الآن أن يَحْسبَ نتائجَ القتال والحرب وفقًا لعدد البيوت المنكوبة، والجسور التي دُمِّرت، والمحالِّ التي أُغلقتْ. لكنّ اللبنانيين لديهم حسابٌ **آخَر** يخصّ الروحَ، والكرامةَ، ويروْنَ الحجرَ ـ على ضوئه ـ وردةً. وحسابُ القوى المعنوية بدأ منذ زمنٍ بعيدٍ، عبر رحلة تاريخية، أصبح خلالها كلُّ ما هو معنويٌّ قوةً ماديةً أخطرَ شأنًا من القوى المادية الظاهرة. في هذه الرحلة أصبح الإنسانُ هو الكائنَ الوحيدَ الذي يَقْبل عن وعي بأن يبيدَ ما هو ماديٌّ ـ بدنَه ـ من أجلِ ما هو معنويّ، أيْ كرامته. حالاتُ الصمود حتى الموت داخل المعتقلات والسجون في كلّ بلدان العالم كثيرةٌ، وكلُّها تفيد معنًى واحدًا أنّ الروح تنتصر على البدن، وأنّ كلّ ما هو معنوي يَقْبل بالخسائر المادية ليُنقذَ مغزى حياته. والذين ينتحرون من أجل حبٍّ لم يتحقّق يبيدون وجودَهم المادي، من أجل وجود معنوي. والذين يَفْتدون أوطانَهم أيضًا يفعلون ذلك. وفقط عَبْر تلك الخسارة المادية، تصبح الروحُ قوةً أخرى ملموسةً ذاتَ أثرٍ ضخم ولذلك تصبح الأحجارُ وردًا عند نساء لبنان، أو تظلّ أحجارًا عند البعض.

إنّ قصة تطور التاريخ الإنساني كلِّه هي قصةُ التقدم من الحيوانية إلى الإنسانية، ومن الجنس إلى الحب، ومن حشو المعدة إلى الشعور بالكرامة، ومن الحجر إلى الزهرة. هذا ما قدَّمْته المقاومةُ اللبنانية بشهدائها وأبنائها ونسائها وكتّابها ومثقفيها

تحيةً لدماءِ شهداء اختفَوْا لنبقى. وتحيةً لنساءٍ وقفن ببطولة وراء المقاومة وأمامها. وتحيةً لشعبٍ بطل. وتحيةً لأطفالٍ قانا الذين أغمضوا عيونَهم على أحلامٍ توقّفتْ صورُها عند القصف، وهم يمدُّون أذرعَهم وسيقانَهم إلى أبدان أمّهاتهم يلتمسون الدفءَ عندها. هؤلاء سيواصلون أحلامَهم بعيونِ أطفالٍ آخرين أسعدَ حظّاً. أما نحن فإنّنا لن ننسى أحدًا، ولن نَغْفر شيئًا.

القاهرة

د. أحمد الخميسي

كاتب مصري، ومراسل الآداب في القاهرة